

الاستشراق والإستغراب بين الحضور والغياب

Orientalism and Occidentalism between Presence and Absence

تاريخ النشر: 2025/06/11

تاريخ القبول: 2025/06/05

تاريخ الإرسال: 2024/12/28

شهرة درسوني¹EMAIL: chahra.darsouni@univ-annaba.dz ، جامعة عنابة ، الجزائر¹

الملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية للوقوف أمام دراسة فكرية كلاسيكية وراهنية بالوقت ذاته، تتعلق بكل من علمي الاستشراق والاستغراب، والبحث في جذور كل واحد منهما وأشكاله، ومناهجه وآلياته، والأهم من ذلك غاياته وأهدافه، سيما أنّ الغاية المعلن عنها ظاهريا ترتبط بالتبادل الثقافي والمعرفي والحضاري، وبما أنّ تقابل هذين العلمين يؤدي بشكل مباشر لظهور مشكلة علاقة الأنا بالآخر، فإنّ ذلك يستدعي البحث عن الغاية أو الغايات الخفية من تأسيس كل منها.

ولأجل محاولة حلّ هذه المشكلة، وجب محاولة المقارنة والمقاربة بينهما في ظل ما يشهده العصر الراهن من تدفق معرفي ومعلوماتي هائل، وتسارع تقني متزايد، وتغيّر إيكولوجي رهيب، ما يجعل كل واحد منهما خاضعا للحضور مرة وللغياب مرة أخرى في تشييد الحضارة الإنسانية..

الكلمات المفتاحية: الإستشراق، الإستغراب، الجدلية، الحضور، الغياب.

المؤلف المرسل: شهرة درسوني، الإيميل: chahra.darsouni@univ-annaba.dz

Abstract:

This research paper aims to present a classic and current intellectual study at the same time, related to both the sciences of Orientalism and Occidentalism, and to investigate the roots, forms, methods and mechanisms of each of them, and most importantly, its goals and objectives, especially since the apparently declared goal is linked to cultural, cognitive and civilizational exchange, including The confrontation of these two sciences leads directly to the emergence of the problem of the relationship between the ego and the other. This requires searching for the hidden purpose or goals of Establish each one.

In order to attempt to resolve this problem, it is necessary to attempt to compare and contrast the two, given the current era's massive flow of knowledge and information, increasing technological acceleration, and dramatic ecological change. This makes each subject to both presence and absence in the construction of human civilization.

Keywords: Orientalism, Occidentalism, Dialectics, Presence, Absence.

1. مقدمة:

ظهر الاستشراق في الغرب كحركة فكرية في القرن الخامس عشر وعرفت نموًا حقيقيا ومتسارعا في القرنين السابع عشر والثامن عشر ليصبح علما مؤسسا، وهدفه المعلن إرتبط بدراسة ثقافات وفلسفات وأديان الشرق في ظل ما يعرف بالتبادل الثقافي والمعرفي والحضاري، إلّا أنّ هدفه الخفيّ كان التوسّع الجغرافي والإستغلال المادّي للثروات الخام والتغيير الثقافي للهويّات الأصلية للعالم الشرقي، فكان غرضا إستعماريّا



بإمّتياز جعل العديد من المفكرين يطلقون عليه إسم "الإستشراق الإستعماري" ليأخذ تسميات أخرى مرتبطة بالمرحلة التاريخية التي يصلها.

في المقابل، من الشرق ظهر الإستغراب بعد الصدمة الحضارية التي بلغت أوجها إبّان الحملة الفرنسية 1798-1801 كحركة فكرية تحاول دراسة الغرب من جميع النواحي العقدية، التاريخية، الثقافية والسياسية، ونجد المفكر المصري حسن حنفي أدلى بدلوه محاولا التعقيد له ليصبح علما مستقلا له أسسه ومناهجه الخاصة، بغية تجاوز عقدة النقص التاريخية في علاقة الأنا بالآخر، بإعتقاده أنّه الحل الأنجع لقراءة الآخر والإستفادة منه دون تبعية أو إندماج والحفاظ على الهوية الروحية والمادية مع الإلتحاق بالركب الحضاري ومشروع الكونية، وقد قدّم محاولته في كتابه الموسوم بـ "مقدمة في علم الإستغراب".

إذا كانت الدراسات الأنثربولوجية بإعتمادها الصيرورة الكرونولوجية تبحث في جذور كل واحد منهما وأشكاله، ومناهجه وآلياته، والأهم من ذلك غاياته وأهدافه، فإنّ ذلك يلزم عنه محاولة المقارنة والمقاربة بينهما في ظل ما يشهده العصر الراهن من تدفق معرفي ومعلوماتي هائل، وتسارع تقني متزايد، وتغيّر إيكولوجي رهيب، ما يجعل كل علم خاضعا للحضور أو الغياب في تشييد الحضارة الإنسانية، وعلى هذا الأساس سأحاول البحث والتعمّق في تمفصلات المشكلة الآتية: ما مكانة كل من الاستشراق والإستغراب في الحضور والغياب ؟

2. الاستشراق في شرنقة الغياب والحضور :

1.2 دودة الاستشراق الإستعماري الزاحفة :

إنّ الاستشراق (Orientalism) من حيث المصطلح بحسب معجم أكسفورد الإنجليزي" يعود إلى إنبثاق تدريجي لشخصية، أو أسلوب، أو خاصية كانت تقترن بأنماط التفكير أو التعبير أو طرز الأمم الشرقية" (بينيت، طوني ، وآخرون، 2010، ص 63)، ليكون وفقا لذلك مجسّدا لحركة فكرية ظهرت في القرن الخامس عشر وعرفت نموّا حقيقيا ومتسارعا في القرنين السابع عشر والثامن عشر وهدفها المعلن إرتبط بدراسة ثقافات وفلسفات وأديان الشرق في ظل ما يعرف بالتبادل الثقافي والمعرفي والحضاري،

باعتبار أنه " أخذ صورة البحث العلمي ولقد استخدم الكتاب والمقال في المجالات العلمية، وكسريّ التدريس في الجامعات، والمناقشة في المؤتمرات العلمية، والعضوية في المجامع العلمية واللغوية" (الدهان، محمد، 1988، ص 49)، وما برز لهذه الحركة بالقيام والامتداد على نطاق واسع متعلق بجغرافية كونية استغلالها لثنائية المركز والهامش في ظل تحكمها بالمعرفة فقد " أظهرت العقائد المستترة إلحاحا على فرضية أنّ الشرق متخلف، وغير متطور، وعاجز عن التعريف بذاته، إنّ مثل هذه المعرفة المبينة وفق التصنيف الفلسفي للمركز، والتي تطوّرت فغدت مفهوماً أوسع يتمثل في " المركزية الأوروبية" مفلسة أخلاقيا وفق إدوارد سعيد وهذامة أساسا" (اليا، شيلي، 2007، ص 41)، إلّا أنّ الهدف الخفيّ والذي تم التفتّن لكونه الأساسي من ظهورها كان التوسّع الجغرافي والاستغلال المادّي للثروات الخام والتغيير الثقافي للهويّات الأصلية للعالم الشرقي وعليه " لا نبتعد عن الصواب لو قلنا بأنّ الأهداف الأولية للاستشراق استعمارية وتبشيرية واستكشافية منذ بدايتها" (سعيد، إدوارد، 2011، ص 13)، فكان غرضه غرضا إستعماريًا بامتياز جعل العديد من المفكرين يطلقون عليه اسم " الاستشراق الاستعماري "

لقد جعل الإستعمار من الاستشراق أداة علمية أساسية يعتمد عليها في ال- قبل والأثناء، بحيث قبل مباشرته في عملية الزحف والدخول يستعين بكل المعلومات التي تمنحه إياها عن الجغرافية السياسية والعسكرية للمنطقة ما يسهل عليه ذلك، وبمجرد نجاحه بالدخول يظل بحاجة إليها في الأثناء لأنها تزوده بكل المعلومات والمعارف المتعلقة بالجانب الإقتصادي والإجتماعي وحتى الثقافي والعقائدي لتسهيل عملية التعامل مع السكّان الأصليين " فتغنيا بذلك درسا وتخطيطا ومكرا لتطيل فترة سيطرتها وتستثمر في إستنزاف خبراتها وإستغلال ثرواتها ولتعطّل يقظتها وتمنع إنبعائها" (السيد علي، غيضان، 2018، ص 25)، وإن كان المشرقون ينفون كونهم أداة استعمارية ويعتبرونها تهما تمسّ غرضهم العلمي البحث، فإنّ أغلب الدراسات المتخصصة في الاستشراق والكولونيالية وما بعد الكولونيالية تثبت بأنّ المستشرق منظرّ الاستعمار وخائن العلم والمعرفة، ومن بينهم إدوارد سعيد الذي يقول في هذا الصدد: " من المؤكّد أنّ إحدى الكوارث الثقافية في التاريخ حربا إمبريالية أعدتها وحضرتها مجموعة صغيرة، من المسؤولين غير المنتخبين ضد

دكتاتورية مدمرة من العالم الثالث، على أسس إيديولوجية شمولية تتعلق بالهيمنة العالمية والسيطرة الأمنية والثروات النادرة، لكنها موّهت نواياها الحقيقية وبرزت من قبل مستشرقين خانوا إسمهم كباحثين وأكاديميين" (سعيد، إدوارد، 2011، ص 225)، ثم إنَّ المستقرى لتاريخ الأمم والشعوب والمطلّع على تاريخ العلوم والأفكار وبالتحديد تاريخ المستعمرات يلاحظ بأنّه لا توجد بلاد مستعمرة لا تخلو من وجود دراسات استشراقية سابقة على دخول الاستعمار إليها، وإن تعدّدت سبل ذلك من كشوفات جغرافية ودراسات ثقافية ولغوية وعقدية حيث " يقوم الاستشراق بهجوم ثقافي بديلا عن الاستعمار في هجومه المسلّح" (الفيومي، محمد إبراهيم، 1993، ص 109)، لأنّه إيديولوجيا هدفها ضرب الحياة الاجتماعية والثقافية والعقدية عن طريق " إضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوسنا وبث الوهن والإرتباك في تفكيرنا وذلك عن طريق التشكيك بفائدة ما في أيدينا من تراث وما عندنا من عقيدة وقيم إنسانية، فنفقد الثقة بأنفسنا ونرتقي في أحضان الغرب نستجدي منه المقاييس الأخلاقية والمبادئ العقائدية" (السباعي، مصطفى، د.س، ص 22)، ففي الاستعمار الفرنسي للجزائر على سبيل التمثيل والتخصيص كان للمستشرقين دور كبير في نجاحه بل وفي التقييد لعملية الإستيطان في ما بعد وذلك من خلال " تزويد الإدارة الاستعمارية بالمعارف والمعلومات الكاملة عن طبقات الشعب الجزائري من خلال إعداد دراسات أنثربولوجية وجمع أصناف المخطوطات وترجمتها إلى اللغة الفرنسية" (عميراوي، أحميّة، وآخرون، 2007، ص 134)، وهذا ما جعل المؤسسة الاستعمارية تجعل من المستشرق المسير الأول للإدارة الاستعمارية لوظيفته النظرية فكان المستكشف والجاسوس، والباحث والمترجم، والمخطّط والمستشار، والمبشّر والإداري، بل وإعتنت بهم أيّة عناية من خلال توفير كل ما يحتاجون إليه للقيام بأبحاثهم وتسهيل مهامهم وحتى تقديم الإمتيازات لهم، وكلّما احتاجت إلى المزيد منهم " أمّتها المدرسة الاستشراقية للغات الشرقية بباريس، التي باتت الرافد الأساسي لدعم الحركة الاستعمارية ومكاتها العربية في الجزائر وغيرها بالترجمين والمستشارين والملمّين للجند والمستوطنين طرق وأساليب التعامل مع الأهالي الجزائريين على هدى من المعارف والمعلومات التي يصل إليها هؤلاء الخبراء المستشرقين" (عميراوي، أحميّة، وآخرون، 2007، ص 134)، ولأنّ هناك صيرورة تاريخية وتطوّر على مستوى

الفكر والمعرفة، والمنهج والمفهوم فإنّه الأمر الذي فرض على الاستعمار أن يغيّر إستراتيجياته ومفاهيمه وفقا لما تقتضيه الضرورة، وإذا إرتبط الاستعمار القديم بالاستشراق فإنّ الاستعمار الجديد قد إرتبط بمفهوم وعلم الأنثربولوجيا، وهنا حقّ لنا القول بأنّ الأنثربولوجيا هي الوجه الآخر للاستشراق.

2.2 دودة الأنثربولوجيا الاستعمارية في الشرنقة :

لقد "زوّد الاستشراق قارئه بأثر نقدي عن العلوم الاستعمارية التي إبتكرت الآخر" (اليا، شيلي، 2007، ص 48)، فكان جزءا ذلك تغيرات على مستوى المفهوم والمنهج والإستراتيجية مع الثبات على المبادئ والغايات وهو ما عمل على مواصلته في القرن التاسع عشر والقرن العشرين علم الأنثربولوجيا (Anthropology) أو كما يطلق عليه أيضا بعلم الإناسة الذي يعدّ "فرعا من فروع العلوم الطبيعية، ذلك الذي يشكّل على سبيل المثال، علم حياة الجنس البشري" (لالاند، أندري، 2001، ص - ص 74 - 75)، أي أنّه العلم الذي يختص بدراسة الإنسان ماديا واجتماعيا وحضاريا مع استعانتة بالعديد من العلوم المختصة وفي مقدّمها كل من علم الإثنوغرافيا (Ethnography) ويعدّ "علم اجتماعي يصف أحوال الشعوب، ويدرس أنماط حياتهم، ومختلف المظاهر المادية لنشاطهم في مؤسّساتهم وتقاليدهم وعاداتهم كالمأكل والمشرب والملبس وغيرها" (صليبا، جميل، 1982، ص 36)، وعلم الإثنولوجيا (Ethnology) الذي يعتبر هو الآخر "علم اجتماعي يفسّر الظواهر التي يصفها علم الإثنوغرافيا ويدرسها دراسة نظرية تسمح بتصنيفها وتعليلها وقد يطلق إسم الإثنولوجيا في الإنجليزية والألمانية على علم الإنسان" (صليبا، جميل، 1982، ص 37)، بالإضافة إلى العديد من العلوم الأخرى التي ذكرها بروكا في تعريفه له قائلا: "إنّها دراسة الجماعة البشرية في مجملها بتفاصيلها وعلائقها ببقية الطبيعة وهي تشمل علم التشريح البشري، ما قبل التاريخ، علم الآثار، الإثنوغرافيا والإثنولوجيا بالمعنى الأوسع، علم الاجتماع والفلكلور، واللّسانة" (لالاند، أندري، 2001، ص - ص 74 - 75)، كما أنّ علم الأنثربولوجيا لا يتميز بالتعددية في الاختصاصات فقط، وإنّما بالربط الوثيق بين النظرية والممارسة بل وبالممارسة والتطبيق أكثر شيء لأنّ المعرفة الحقيقية التي يقدّمها الأنثربولوجي يشترط "أن يعمل ميدانيا ليفهم المجتمع من الداخل" (لكلرك، جيرار، 1990، ص 60)، أي الاعتماد على منهجية البحث الميداني والإندماج في المجتمع المراد

بالدراسة والإختلاط مع أفرادهم من مثيل إرتدائه اللباس ذاته وإستعمال اللغة ذاتها، ولهذا فإنّ " البحث الأنثربولوجي الميداني هو مشروع الرجل الواحد، بمعنى أنّ الباحث الأنثربولوجي يذهب في الأغلب بمفرده إلى مجتمع البحث ويتولّى بنفسه جمع المعلومات الأنثربولوجية وإن كان يستعين في ذلك بمساعدين أو (إخباريين) من مجتمع البحث نفسه يكونون على دراية وخبرة بأحوال المجتمع وطبيعة العلاقات بين النّاس" (جدعان، فهمي، 2007، 424)، وقد يأخذ الأنثربولوجي صفات مختلفة تختلف باختلاف المجتمع الذي ينبغي أن يدرسه ووفقا لتخصّصه والشخصية التي يتمكّن من إتقانها، فقد يكون رحّالة أو بحّارا أو مبشّرا أو تاجرا أو عالما متخصصا في الطب أو البيطرة أو الزراعة، وهنا يحضر مجدّدا الإختلاف في الإستراتيجية والوحدة في الغاية.

يطرح السؤال المشروع نفسه: لماذا ارتبط علم الأنثربولوجيا بعلماء الغرب والمركز فنجد علماء أنثربولوجيين أوروبيين ولا نجد أنثربولوجيين شرقيين يدرسون الغرب في تلك الحقبة تحديدا ؟ وهو ما نجد إجابته لدى والتر د. منيولو في مقاله الموسوم بـ: **العصيان المعرفي، التفكير المستقل والحرية الدي- كولونيالية** الذي قال في هذا الصدد: " قامت الأنثربولوجيا (نعني الإختصاص الغربي المسمّى بهذا الإسم) بتنزيل العالم الثالث في نطاق توزيع العمل العلمي الذي أعاد تنظيم سياسات المعرفة إبان الحرب الباردة، والآن، فإنّه ليس سرا أنّه من الناحية الكمية أغلبية علماء الأنثربولوجيا، رجالا ونساء، كانوا من البيض ومن الأمريكيين- الأوروبيين. ومع ذلك، فإنّ الأنثربولوجيا بما هي إختصاص هي تجد محاربا في العالم الثالث" (منيولو، والتر د ، 2016، ص 28)، وهو ما يؤكد بأنّ الأنثربولوجيا مثلها مثل الإستشراق كان ظهورها " في الفترة الحديثة أمرا مدبّرا ومقصودا له قبل أن تصبح علما قائما بذاته" (توميّات، عبد الرزاق، 2022، ص 279)، ما يجعل حضور الاستعمار مشروعا وضروريا لأنّه وقبل بدايات إنطلاق الكشوفات الجغرافية والاستعمارية لم يكن هناك ما يعرف بالاستشراق ولا بالأنثربولوجيا ولكن بمجرد وضع الإستراتيجيات الإمبريالية لأجل قيام الحملات الاستعمارية والعسكرية تمّ توظيف الاستشراق قديما وعلم الأنثربولوجيا حديثا ولهذا " فإنّ تاريخ الأنثربولوجيا غير منفصل عن تاريخ الاستعمار الأوروبي للشعوب الواقعة في مختلف القارات، فمنذ القرن السادس عشر حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر كان التجّار والإداريون والبحّارة والمبشّرون يقومون بإمداد

الغرب بالمعلومات عن تلك الشعوب الأجنبية (...) حتى اتّضح بأنّ التاريخ والأنثروبولوجيا مجالان متكاملان ومتداخلان إلى حدّ لم يتمكّن الأنثروبولوجي من الإستغناء عن تاريخ الشعوب، وفي المقابل لم يتمكّن المؤرّخ من الوقوف على حقائق دون الإستعانة بالمعلومات الأنثروبولوجية" (بوحسون، العربي، د.س، ص 163)، وبالرغم من أنّ أغلبية المستشرقين قديما والأنثروبولوجيين حديثا يتنكّرون لعلاقة نشأة هذا العلم وظهوره مع وجود الإستعمار ولكونه أدوات إستعمارية موظّفة لغايات إمبريالية فإنّ البعض يذهب إلى القول وإستنادا لما تفرضه الضرورة والأمانة العلمية إلى أنّ "الأنثروبولوجيين أنفسهم يعترفون اليوم بأنّ إختصاصهم العلمي هذا يستمد موضوعه الفعلي من النزعة الإمبريالية، ويستوحي منهجه من النظرة الاستعمارية فأصبح الإهتمام بتلك الشعوب ووصف مؤسساتها الثقافية من أولوياتهم" (توميّات، عبد الرزاق، 2022، ص 276)، فالأنثروبولوجيا ليست سوى مشروع إمبريالي متلون بالمعرفة والأخلاق.

وبالرغم من الإنكار المبدئي الشديد من قبل الأنثروبولوجيين للعلاقة الوطيدة التي تجمع بين العلم الذي يمثّلونه وبين الحركة الاستعمارية والإمبريالية، فإنّه لم يستمر طويلا وتمّ الإعتراف من قبل البعض منهم بوجود علائقية شديدة بينهما فوجود طرف فيهما يشترط وجود الآخر بالضرورة، حيث نجد من الناحية التاريخية بأنّ "الإمبريالية الاستعمارية المعاصرة تتوافق زمنيا مع الأنثروبولوجيا المعاصرة، فكلتاها تعودان إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر" (لكرك، جيرار، 1990، ص 12، ومن الناحية المنطقية نلاحظ بأنّ الأنثروبولوجيين لم يدرسوا سوى الشعوب المستعمرة التي نعتوها بالبدائية والتوحّش، "وأنّ موقف الأنثروبولوجيا الاستعماري لم يتوضّح بالفعل إلّا بعد أن بدأت مرحلة إنهاء الإستعمار في العالم الثالث" (لكرك، جيرار، 1990، ص 12)، وفي هذا الصدد يقول الأنثروبولوجي الإنجليزي إ. بريتشارد: "إذا كانت السياسة الاستعمارية لحكومة ما، تقوم على حكم شعب من الشعوب بواسطة رؤسائه، فمن المفيد أن يعرف من هم هؤلاء الرؤساء، ما هي وظيفتهم، وسلطتهم وإمتيازاتهم، فإذا سلّمنا بأنّ حكم شعب ينبغي أن يتم وفقا لشرائعه الخاصة وعاداته الخاصة، فيجب أولا أن يكتشف هذه الشرائع والعادات." (بغورة، الزواوي، 2001، ص 27)

يقول جيرار لكرك: "الأنثروبولوجيا ممارسة جديدة تماما كالاستعمار العلمي، ولا معنى لها إلا من داخل " الاستعمار العلمي " غرضها هو إما وصف شروط الوجود البدائي في المرحلة السابقة على دخول الإستعمار، بحيث تصف نمط هذا الوجود قبل أن يصار للقضاء عليه، أو أنّها ستتناول وصف شروط هذا الوجود كما خلقه الإستعمار وبذلك يتحوّل إلى دراسة " التغيّر الإجتماعي " أو الثقافي " (لكرك:، جيرار، 1990، ص - ص 36 - 37)، والمقصود من قوله أنّ للأنثروبولوجيا وظيفتين استعماريّتين أساسيتين: الأولى، والتي يمكن أن نسمّيها بالوظيفة الما- قبل استعمارية والتي تمهّد لدخول الاستعمار للبلاد المستعمرة والنجاح في ذلك فلقد" بدأ الأنثروبولوجيون بدراسة الشعوب المستعمرة للتعرف على طبائعها وخصائصها والإستفادة من نتائج تلك الدراسات في إحكام السيطرة الاستعمارية عليها، بمعرفة مواطن الضعف في المجتمع ورسم السياسة المناسبة للتعامل معها أو لتعديل بعض الأوضاع لتصبح ملائمة لطبائع الشعوب وبالتالي البقاء والاستمرار في استعمارها والسيطرة عليها" (العثمان، وسام، 2002، ص 18)، والثانية، فهي الوظيفة المحايثة للكلونيالية أي مصاحبة الأنثروبولوجيا للاستعمار أثناء تغلغله في البلاد المستعمرة ومحاولة إقامته الدائمة فيها عبر ما يعرف بالإستيطان، لأجل النجاح في تحقيق الغاية الكبرى وهي الإستغلال الإقتصادي للثروة وتغيير معالم الجغرافيا وفقا لما تقتضيه ثنائية المركز والهامش.

بعد التجلّي الواضح للعلاقة الوطيدة بين علم الأنثروبولوجيا والنزعة الاستعمارية أضى بالإمكان التأكيد على أنّ علم الأنثروبولوجيا قد تحوّل إلى الأنثروبولوجيا الاستعمارية (Colonization Anthropology) علنا، وطبعا" فلاأيديولوجيا دور في تشكيل الإدارة الاستعمارية والأصول الاستعمارية للأنثروبولوجيا" (بالتناين، توني، 2016، ص 15)، وهو ما جعل الأنثروبولوجيا القلب النابض للمؤسسة الاستعمارية من منطلق كونها" منظومة معرفية تخدم النزعة الكولونيالية وإيديولوجيتها" (توميّات، عبد الرزاق، 2022، ص 277)، ويظهر ذلك جليّا في ممارسات المؤسسة الاستعمارية حيث أنّها تولي علماء الأنثروبولوجيين مكانة هامة في هيكلية النظام الإداري الاستعماري ولهذا" إعتنت الإدارات الاستعمارية بعلماء الأنثروبولوجيا أيما عناية، فبالإضافة إلى تسخير العلماء البحّاث لغايات استعمارية، فقد خصّصت لهذه الأنشطة العلمية الموجهة مراكز البحث ودراسات

ثقافات الشعوب، وأوكلت مهمة تنشيطها للأنثربولوجيين المنضمين تحت رايتها وسلطانها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وذلك وفق إيديولوجية استعمارية ليس إلّا، فكانوا يطعمونها بأبحاثهم وتقاريرهم الميدانية" (توميّات، عبد الرزاق، 2022، ص 278)، فعالم الأنثربولوجيا هو المخطّط والمستشار الأول بالنسبة لها ولهذا يطلق عليه تسمية "أنثربولوجي النظام" (لكرك، جيرار، 1990، ص 52). إنّ الأنثربولوجيا الاستعمارية تتقدّم أولى العلوم الاستعمارية "ويحيل الكثير من المؤرّخين مصطلح "العلوم الاستعمارية" إلى المعرفة العلمية الصادرة عن مختصّين تدربوا في حواضر المستعمرات ويركّز المؤرّخون المؤمنون "بأقلّمة أوروبا" على دور الإدارات الاستعمارية في خلق أشكال جديدة من المعرفة العلمية عادت لاحقاً لأوروبا" (كونكلين، أليس ل، 2018، ص 25)، إنّها المسؤول الأول عن إنتاج لون جديد من المعرفة الإنسانية وهي "المعرفة الاستعمارية" وهذه الأخيرة هي "تلك المعرفة التي أنتجت بشكلها ومحتواها من خلال استغلال الموارد والتجارة والفتح" (بالتاين، توني، 2016، ص 14)، هي المعرفة المبرّرة للقوة والسلطة والذي فرض بالضرورة ثنائية المعرفة والسلطة للعلاقة الشرطية الموجودة بينهما، ومن هذه النقطة أضحت "المعرفة غير بريئة، لكنّها ترتبط بعمق مع عمليات السلطة" (لومبا، أنيا، 2007، ص 54)، وإن كانت الجذور الأولى لها قد برزت مع الاستشراق الذي كان بالنسبة لإدوارد سعيد "النقطة الحاسمة نحو تحليل العلاقة بين القوة والمعرفة. وأداء الخطاب الإستشراقي العام لوظيفة تعبوية وسياسية وتخيلية خدمت السياسات الاستعمارية وشكّلت جزءاً لا يتجزّأ من مناخات صعود الإمبريالية" (سعيد، إدوارد، 1996، ص 26)، وتظل المعرفة الاستعمارية الدعامة الأساسية التي تمنح القوة والسلطة والإمبريالية (Imperialism)، وتوظّفها الإدارة الاستعمارية بأشكال مختلفة تختلف وفقاً للصيرورة التاريخية والاجتماعية التي تواكبها لأنّ "صيرورة المؤسسة الاستعمارية الأوروبية تتمثّل في تلك الأساليب التي يبحث عبرها الغرب عن بني السلطة التي يستطيع فهمها وتطويرها، فإن لم يستطع إكتشاف إحداها فإنّه يقوم بإبتداعها." (واليا، شيلي، 2007، ص 40)

لقد إستندت الأنثربولوجيا الاستعمارية للقيام بوظيفتها طبقاً للإستراتيجية الموضوعية إلى العديد من العلوم الاستعمارية والتي من بينها علم الإثنولوجيا، علم الإثنوغرافيا، علم الآثار، علم الإجتماع والفلكلور، علم اللسانة، ولكن يعتبر العلم الأول

الذي يفتح المجال لبقية العلوم من الدراسة علم الخرائط (Cartography) الذي يتأسس على " دراسة الخرائط ورسمها وهي ممارسات سائدة في الثقافات الكولونيالية وما بعد الكولونيالية، بل كثيرا ما كان الاستعمار ذاته ناشئا عن رحلة " إكتشاف " تلك الممارسة التي تخرج فيها إلى حيّز الوجود أرض " غير مكتشفة "، وقد تعزّزت عملية الإكتشاف هذه من خلال تصميم الخرائط، التي يعني وجودها أنّها وسيلة لوضع الواقع الفضائي (المكاني) للآخر داخل نص، ولتسمية، أو في أغلب الحالات تقريبا لإعادة تسمية الحيّز والأمكنة في ممارسة رمزية وحرفية للتفوّق والسلطان" (أشكروفت، بيل، وآخرون، 2010، ص 86)، بمعنى أدقّ هذا العلم يتمكّن من ممارسة الأفعال الثلاث: الإكتشاف، التغيير، التحكم، أي إكتشاف البلاد المراد إستعمارها والتمكّن من رسم خريطة جغرافية إقتصادية وإجتماعية وثقافية، ثم العمل على تغيير معالم جغرافيتها ورسمها بمعالم جغرافية جديدة بأسماء جديدة تناسب والفعل الثالث الذي يتمثّل أساسا في التحكم فيها والهيمنة عليها من خلال استغلالها، ولهذا " واضع الخرائط وماسح الأراضي الكولونيالي كان أكثر شخصية دائمة الحضور وممثلة للهيمنة الإمبريالية" (أشكروفت، بيل، وآخرون، 2010، ص - ص 89 - 90)، ولأنّ الأنثروبولوجيا الاستعمارية التي تنتج المعرفة الاستعمارية حتى وهي تخدم النزعة الإمبريالية عن طريق المؤسسة الاستعمارية، وتسعى لتحقيق الهيمنة الإقتصادية للبلاد المستعمرة وإستنزاف ثرواتها ومواردها الطبيعية، تظل ووفقا لإستنادها لثنائية المركز والهامش تبرز للإستعمار على كونه كشف وفتح لأجل الحضارة والمدنية والتطوّر بشكل علمي متخلّق، إذ " يرى المختصون بأفريقيا أنّ مشروع الدولة الاستعمارية يقوم بقوة على سعيها إلى فتح البيئات الإفريقية وتطويرها" (بالتاين، توني، 2016، ص 23) أي البحث الدائم عن الأراضي الجديدة الخصبة لأجل الخلاص، وهنا شرّعت الأنثروبولوجيا الاستعمارية التأسيس لظهور مفاهيم جديدة علمية في شكلها واستعمارية في عمقها من أمثلة " المجتمع البدائي"، " الإنسان المتوحّش"، " السكّان الأصليين"، " التديجين"، " التهجّين"، و" التمدّن"، " التحضّر"، وكلّها أصبحت مصطلحات منسوبة من قبل البلاد المستعمرة للبلاد المستعمرة بغرض التبرير لضرورة الإستيلاء عليها، ولأنّ الأراضي الجديدة تملك كل مسبّبات القابلية للإستعمار بحجة تطويرها، يقول جيرار لكرك في هذا الصدد: " المجتمعات البدائية أو " التقليدية " كانت جميعها خاضعة للاستعمار، وقد

وصفت بـ "البدائية" لأنها كانت ببساطة صالحة للخضوع لسيطرة الاستعمار" (لكرك، جيرار، 1990، ص 12)، ولأنّ الأنثروبولوجيا الاستعمارية مهّدت لظهور الرأسمالية وتطوّرها لخدمة النزعة الإمبريالية فقد جعلت من فكرة نظرية العمل أساسا ومبرّرا لإستغلال ثروات البلاد المستعمرة من منطلق "أنّ الإنسان البدائي إنسان كسول فهو ثمرة طبيعة معطاء" (لكرك، جيرار، 1990، ص 19)، فالشرق من منظور الرأسمالية الإمبريالية يتميّز بخصوبة الأرض والمناخ المناسب ما يجعل سكّانه كسولين ولهذا فالنشاط الإقتصادي المناسب لهم يتمثل في الزراعة، بينما الغرب فيتميز بعدم خصوبة الأرض وقساوة المناخ ما يجعل سكّانه مجتهدين يميلون إلى العمل ويتّجهون إلى الصناعة، ويفسرّ جيرار لكرك ذلك مجدّدا قائلا: "لقد اعتبرت النظريات التي تعود إلى العصور الوسطى وإلى عصر النهضة أنّ الحياة البدائية (المتوحّشة) دليل على الحياة الطبيعية وعلى الأصالة الخلقية ودليل على النجاح أيضا، وبالترباط مع هذه الأطروحة فسّرت الثروات الضخمة التي تمّ الحصول عليها دون عناء ودون لعنة العمل، عكس ما يميّز أوروبا بما فيها من فقر وعمل، عدا ذلك نجد أنّ النظرية السائدة المستمدة من التوراة، قد اعتبرت العمل نتيجة إنحراف عن الطبيعة وعن الإله ثم إنّ مثال البطالة الكلاسيكية كما تجسّد في سيرة النبلاء والكهنة والأغنياء، كان من إمتياز أقلّية إستطاعت عن طريق النهب التخلّص من الحاجة إلى العمل" (لكرك، جيرار، 1990، ص 18)، ووفقا لهذه الإستراتيجية التي إعتمدتها الإدارة الاستعمارية تحت إشراف الأنثروبولوجيا الاستعمارية تمتّ عملية الشروع في توظيف مختلف العلوم الاستعمارية لأجل التطبيق، من خلال مرحلتين أساسيتين: الأولى، وظيفة الاستغلال والاستنزاف للثروات والموارد الطبيعية لتجاوز النقص الكبير لها في البلاد الأم التي تعاني الفقر والوباء، والثانية، وظيفة تغيير معالم البلاد المستعمرة من خلال عملية التهجين والتدجين الطبيعي والثقافي والبيئي والإبقاء على الهيمنة الإمبريالية لها، وتوسيع الهوة بين الغرب/المركز والشرق/الهامش.

3.2 خروج فراشة ما بعد الكولونيالية كأطروحة إمبريالية جديدة:

إنّ الإمبريالية الغربية لا يمكن أن تتخلّى عن مشاريعها الاستعمارية ببساطة فغايتها ثابتة، لكن وسائلها وإستراتيجياتها متغيرة بتغيّر الصيرورة التاريخية والظرفية بل ومتلّونة دوما لإستنادها إلى المعرفة المتخلّقة، ولهذا فإنّها شرعت مع الاستشراق بالزحف إتّجاه

الأراضي الجديدة كالدودة بكل ثبات في السير ومن دون إصدار ضجيج حاملة شعار التمدّن وتحرير البشر، ثم بعد ذلك ونظرا لظهور حركات الرفض والمقاومة من قبل السكّان الأصليين ووعيمهم بحقيقة الحركة الاستشراقية الاستعمارية، تمّ الإنتقال بخطّة واعية ومقصودة إلى المرحلة الثانية أين إعتلت دودة الاستشراق غصن الشجرة وبدأت تحيط نفسها بالشرنقة كمحاولة منها إلى الإختفاء والزوال ولكّنها وهي في الشرنقة أصبحت دودة الأنثروبولوجيا العلم القائم بذاته الذي له مفاهيمه ومناهجه وآلياته الخاصة، ومن منطلق كونه علم له غرض معرفي وثقافي إنساني إستند إلى العديد من العلوم المساعدة له في وظيفته التي هي في حقيقتها وظيفة استعمارية بإمتياز، ومجدّدا مع ظهور حركات المقاومة والتحرّر وإنهاء مرحلة الاستعمار في المستعمرات تمّ كشف حقيقة الأنثروبولوجيا الاستعمارية، وعليه كان لزاما على الإمبريالية الغربية أن تغيّر أسلوبها تغييرا جذريا وذلك عن طريق التحوّل الكليّ والنهاي للدودة وخروجها في شكل جديد وساحر وجذاب يجمع بين الدهاء المعرفي والسحر الجمالي، إنّها فراشة ما بعد الكولونيالية التي هي بالأساس أطروحة إمبريالية جديدة متخفّية بالنسبة للمركز، وظاهرة جليّة بالنسبة للهامش الذي لا يراها فترة ما بعد كولونيالية بل يراها كولونيالية جديدة أو ما يمكن تسميته كذلك بالنيو-كولونيالية أي الإستعمار الجديد. مصطلح ما بعد الكولونيالية أو ما بعد الإستعمارية (Post/colonial) يشير " للوهلة الأولى إلى المرحلة التي تلي الفترة الإستعمارية، إلّا أنّ هذا التوجّه الفكري هو أكثر ما يحذّر منه الكثير من النقاد، خشية الوقوع في فخ "الـ" ما بعد" التي توحى بالكرونولوجية، والتعاقبية، والمرحلية ممّا يوحي بتطابق مصطلح " ما بعد الاستعمارية بـ" ما بعد الإستقلال" ("عطية، أحمد عبد الحليم، 2018، ص 165)، أي أنّها مرحلة مضادة تماما ومعاكسة للمرحلة الأولى ولهذا فإنّه " لا زال هذا المصطلح يستخدم من آن لآخر ليعطي ببساطة " مناهضا للكولونيالية " وكمراشف لمصطلح " ما بعد الاستقلال " ("أشكروفت، بيل، وآخرون، 2010، ص 286)، وعليه كل المفاهيم التي كانت سائدة في فترة الاستعمار في المستعمرات تمّ تغييرها وفقا للفترة الجديدة التي أخذت فيها حريتها وإستقلالها، وتمّ الإنتقال من مصطلح الأرض المستعمرة أو الأرض في الفترة الكولونيالية إلى الدولة المستقلة أو الدولة ما بعد الكولونيالية لأنّ " دولة ما بعد الكولونيالية مرادف لدولة ما بعد الاستقلال، فيعدّ تكوّن الدولة بعد استقلالها أبرز علامة

على انفصال المستعمر عن القوة الإمبريالية، وبعدّ إستقلال تلك الدولة المتكوّنة حديثاً هو الشرط المحتوم للزعم بتخلّصها من سلطة المستعمر." (أشكروفت، بيل، وآخرون، 2010، ص 292)

إذن، فإنّ الوقوف أمام مصطلح "الما بعدية" (Post) والتأمّل فيه ملياً يحيل إلى القول بأنّه مصطلح إمبريالي متلوّن لما يتضمّن من مدلولات متعدّدة وحملات أوجه تضفي أحيانا إلى التعاقب والإنتقال النوعي، وأحيانا إلى التتمة والمواصلة لما كان بالقبلية، هذا بالإضافة إلى أنّ مصطلح ما بعد الكولونيالية كان إلى جانبه العديد من المصطلحات المسبوقة بالما بعدية والتي تتضمّن هي الأخرى السمات الإمبريالية التي أرادت الإمبريالية الغربية أن تتحقّق بها وتواصل سيرها نحو غاياتها، أي أنّ "ما بعد الاستعمار" مفهوم ينتسب إلى الجيل الإصطلاحي المستحدث الذي شاع صيته في ما عرف بـ "المابعديات" فلقد بدا جلياً أنّ كل هذه "المابعديات" كـ "ما بعد الحداثة"، "ما بعد العلمانية"، "ما بعد التاريخ"، "ما بعد الميتافيزيقا"، "ما بعد الإيديولوجيا" (...) وأخيراً "ما بعد الإنسان" أو ما يسمّى بـ "الإنسان الأخير" إن هي إلّا منحوتات لفظية يعاد تدويرها كلما دعت الحاجة، على هذا الأساس أمكن لنا أن نفترض أنّ السياق "المابعد" هو تدبير إحترازي أخذت به المنظومة الحداثيّة لوقاية نفسها من الخلل والتهافت والإضمحلال" (حيدر، محمود، 2018، ص 10)، بل وقد سعت إلى بث أيديولوجيتها عن طريق الترويج للمعنى الإمبريالي الذي تريده من مصطلح "الما بعدية" على أنّه مصطلح يعني التعاقب والإنتهاء ولهذا "لقد تمّ إقتراح أنّه من الأجدي لنا أن نفكّر بما بعد الإستعمار على أنّه حرفياً تاليا للاستعمار ودالاً على زواله، بل بمرونة أكبر على أنّه الطعن بالسيطرة الاستعمارية جغرافياً كالأفارقة الأمريكيين أو سكان من أصول آسيوية أو كاريبية في بريطانيا على أنّهم رعايا ما بعد استعماريين مع أنّهم يعيشون داخل ثقافات حواضرية، ويسمح لنا أن ندمج تاريخ المقاومة المناهضة للاستعمار مع مقاومات معاصرة ضد الإمبريالية والثقافة الغربية المهيمنة" (لومبا، أنيا، 2007، ص 27)، فكان لا بدّ من حركة مضادة للوقاية من هيمنة إيديولوجية ما بعد الكولونيالية ووضعها بين قوسين وتحديد المصطلح الحقيقي لها والمتمثّل في "النيو-كولونيالية" أو "الإستعمار الجديد" حيث "يستخدم هذا المصطلح لوصف كيفية مواصلة البلدان الصناعية السيطرة على مستعمراتها السابقة، بعد نضالات الإستقلال:

إنّه لا يشير فقط إلى السيطرة السياسية، ولكن أساسا إلى الإستراتيجيات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، لمواصلة السيطرة على مستعمراتها السابقة، وتشمل هذه الإستراتيجيات استخدام الديون الخارجية، وسياسات التجارة والإستثمار، وإستخراج المواد الخام ("حموشان، حمزة، وبالويللو، وميكا مينييو، 2015، ص 158)، إنّ أصعب المعارك التي واجهها الإنسان عموما والإنسان المستعمر على وجه الخصوص ولا يزال هي معركة المفاهيم والتي تعدّ أخطر بكثير من معركة السلاح، لأنّ السلاح لا يمكن أن يأتي بمتغاه إلا إذا تأسّس على قاعدة مفاهيمية صحيحة، صلبة وحقيقية، وكل مفكر منتهم لبلاد المستعمرات وممثل لحركات المقاومة والتحرّر يدعو إلى ضرورة تصحيح المفاهيم المغلوطة وتصحيحها وتبني المفاهيم الصحيحة، ومن بينهم المفكر الجزائري عبد الله شريط الذي يقول في هذا الصدد: "(...) كل الأشياء عندنا في حاجة إلى تصحيح في مفاهيمها" (شريط، عبد الله، 1981، ص 226)، وبالتالي فلا بدّ من أن يتبنّى كل مفكر وكل منتهم إلى بلاد المستعمرات مفهوم ما بعد الكولونيالية بأنّه ذاته مصطلح النيو-كولونيالية أو الإستعمار الجديد لأنّه ينبغي أن "يذكرنا بأنّ الإستعمارية قد أعادت صنع العالم ومازالت تفعل هذا عن طريق تشكيل الإستجابات ضدّها، فلا "أوروبا" ولا "العالم الثالث" ولا "المستعمرون" ولا "المستعمرون" كان يمكن أن يوجدوا من دون تاريخ الاستعمارية." (بينيت، طوني، وآخرون، 2010، ص 573)

إنّ فراشة ما بعد الكولونيالية وإن ظهرت بشكل جديد ومغاير تماما لما كانت عليه قبلا في الاستشراق الاستعماري ثم الأنثربولوجيا الاستعمارية، إلّا أنّها لم تستطع أبدا إخفاء نزعتها العقلانية، ولقد "بيّنت إختبارات التاريخ أنّ أميز طبائع العقل الاستعماري إضفاء صبغة عقلانية على كل فعالية من فعالياته بقطع النظر عن أثرها الأخلاقي، إنّ ما ينتج من هذا في آخر المطاف هو أن تتحوّل العقلانية إلى ذريعة فادحة الإستخدام الإيديولوجي في الفكر الإمبريالي" (حيدر، محمود، 2018، ص 14)، فنزعتها العقلانية هي التي أسّست لحدائتها ومركزيتها فإمبريالياتها، وممارستها لكل أفعال الاستغلال والاستهلاك والتغيير والتهميش والإقصاء، حيث نجد بأنّ العقلانية الغربية هي اللبنة الأساسية التي قامت عليها الحداثة الغربية "والحقيقة أنّه بات واضحا اليوم أنّ العولمة في واقعها العملي هي المعبر الحقيقي عن الإمبريالية الغربية التي تأتي الحداثة في طليعة أدواتها" (بري، محمد، 2018،

ص 98)، إذن، فالتغيير كان على مستوى الشكل وليس المضمون لأنَّ الإمبريالية الغربية لا يمكنها التخلّي عن منطق الثنائية وتحطيمه إذ "يعدّ المنطق الثنائي للإمبريالية تطوُّراً في ذلك النزوع الذي يبديه الفكر الغربي بوجه عام نحو رؤية العالم في ضوء المقابلات الثنائية التي تؤسس علاقة هيمنة وتسيّد، ويتمثّل التمييز البسيط بين المركز/الهامش، المستعمر/المستعمر، عاصمة المستعمر/الإمبراطورية، متحضّر/بدائي بفعالية كبيرة التسلسل الهرمي الجائر الذي تقوم عليه الإمبريالية وتخلّده" (أشكروفت، بيل، وآخرون، 2010، ص 76)، والتخلّي عن هذا المنطق بالنسبة لها هو تخلّ عن مركزيتها بالضرورة وهو الشيء الذي لا يمكن أن يكون، ففراشة ما بعد الكولونيالية تحاول أن تستغل طيف الألوان الذي عليها ظاهراً في العديد من التجلّيات بين توحيد للمعرفة الإنسانية في مختلف المجالات العلمية والتقنية والتكنولوجية، وتوحيد للغات في لغة واحدة، وجمع للثقافات في ثقافة واحدة، وتحويل الإنسان إلى إنسان واحد ذو بعد إستهلاكي مادي، وكله عن طريق العولمة أي جعل العالم الغربي وعالم المستعمرات عاماً واحداً وما ساعها في ذلك التجربة الإستعمارية السابقة التي ساهمت فيها كل من الإستشراق والأنثروبولوجيا، وعليه يصبح كل من الأنا والآخر واحداً، وهو ما عبّر عنه عبد الوهّاب المسيري في كتابه حوارات 2: العلمانية والحدّات والعولمة، قائلاً: "لم يعد هدف الإمبريالية في الوقت الحاضر متمثلاً في إرسال جنود لإحتلال أراضي الآخرين وتسخير شعوبها أو إعادتهم كما كان الحال في الماضي، الهدف الأكبر أن يحوّل كل البشر إلى مادة استعمالية إنتاجية استهلاكية، هذا يتم عن طريق الإعلانات، عن طريق الفيديو، عن طريق إنشاء مدن الاستهلاك واللذة (...)" وهذه الاستهلاكية العالمية لا يهتمها على الإطلاق في الواقع أن تقيم الصلاة، إنّما ما يهتمها أن يسعى ابنك إلى لبس الجينز وأن يسمع موسيقى الديسكو ويأكل الهمبرجر، ولذا فهي رؤية أحادية إختزالية للإنسان" (المسيري، عبد الوهّاب، 2010، ص 29)، ليكون تجاوز المنطق الثنائي مجرد وهم أدلجته ما بعد الكولونيالية لخداع إنسان الهامش.

على الرغم من محاولة ما بعد الكولونيالية تغيير إستراتيجياتها لأجل التنكّر وتأكيدها على عدم مواصلة هيمنتها الإمبريالية على بلاد المستعمرات بعد تحرّرها جغرافياً وعسكرياً واقتصادياً وثقافياً، فقد ظلّت -ولا تزال- تحارب سكّانها الأصليين وتتصدّى لمقاومتهم الثقافية وذلك بمحاولة الهيمنة الإمبريالية الثقافية عليهم ومواصلة عملية المثاقفة التي

كانت تنتهجها أثناء فترة الإستعمار والإستيطان، " إنَّ الإمبريالية تهاجم ثقافيا لتمنع سرديات أخرى من أن تتكوّن وتبزغ، لأنَّ الهيمنة والسيطرة الثقافية والأخلاقية تجعل الآخر المغلوب والمستلب يدخل في هستيريا تقليد الآخر، والتماهي به وسلوك طريقته ونمطه الاقتصادي والثقافي، وهذا ما إنتهت له السرديات العربية التي سلكت طريق المقاومة والتصدّي لمخطّطات الإمبريالية العالمية" (ياسين، أغاللو، 2018، ص 109)، إنَّها محاولة الإبقاء على الآخر تحت السيطرة ليسود المركز في مقابل الهامش، ويكتب تاريخ المركز ويهمّش تاريخ الهامش، ولقد أرجع عبد الوهّاب المسيري الحداثة الغربية وقدرتها على مواصلة هيمنتها الإمبريالية إلى مواصلتها إحكام السيطرة على الآخر وتهميشه وإضعافه، فيقول: "بدأت أرى الحداثة الغربية والعقلانية الغربية في علاقتهما بالإمبريالية التي كانت تعوق التحديث في بلادنا، وتتعاون مع النظم الفاسدة، وتقوم باستغلال خيرات آسيا وإفريقيا ونهب العالم، تساندها في ذلك القوة العسكرية والأيدولوجيات العنصرية مثل " عبء الرجل الأبيض "، وهي أيدولوجيات أبعد ما تكون عن العقلانية" (المسيري، عبد الوهّاب، 2000، ص 172)، مواصلا موقفه: "وأدركت أنّ "التقدّم الغربي" هو ثمرة نهب العالم الثالث، وأنّ الحداثة الغربية لا يمكن فصلها عن عملية النهب هذه، وأنّ نهضة الغرب تمت على حساب العالم بأسره" (المسيري، عبد الوهّاب، 2000، ص 174)، أي أنّ الرجل الأبيض الذي حمل على عاتقه عبء رسالة التمدّن والتحضّر للإنسان المتوحّش/البداي/الزنجي/الأسود/التابع كان هذا الأخير السبب الأساسي والحقيقي خلف ما وصل إليه من مدنية وحضارة يزعم أنّه المسؤول عن إنتاجها وتطويرها المستمر.

3. الإستغراب والزحف نحو الحضور :

1.3 دودة الإستغراب الزاحفة:

إذا كان الاستشراق في جدلية الحضور والغياب حاضرا في الزحف ثم غائبا في الشرقة ثم حاضرا في التحليق مجددا، فإنّ الإستغراب (Occidentalism) أو (Westernology) كما يعرفه " أحمد سمايلوفتش كلمة مشتقة من كلمة (غرب)، وكلمة غرب تعني أصلا غروب الشمس، وبناء على هذا يكون الإستغراب هو علم الغرب. ومن هنا يمكن كذلك تحديد كلمة (المستغرب) وهو الذي يتبحّر من أهل الشرق في إحدى لغات

الغرب وآدابها وحضارتها" (النملة، علي إبراهيم، 2015، ص 15)، وإذا تمّت العودة إلى تحديد الفترة التاريخية لظهوره في مقابل الاستشراق فإنّ دراسة الشرق للغرب كانت منذ القدم، وبدأت مع الترجمات الأولى لعلوم ومؤلفات اليونان من قبل المفكرين الشرقيين والعرب، ولكن بدأت تأخذ غايات مختلفة مع المشاريع النهضوية للفكر العربي بعد الصدمة التي تعرّض لها لأجل الإلتحاق بالفكر والتقدم العلمي المعاصر، وذلك في مشاريع فكرية نهضوية مختلفة بإختلاف المفكرين ومبادئهم ورؤاهم الاستشراقية وتحليلاتهم النقدية للفكر والواقع، فأخذ علم الإستغراب بهذا المعنى والمنحى نقبضا لعلم الاستشراق في فترة الثمانينات مع كتابات المفكر حسن حنفي الذي حاول التععيد والتأسيس له بمؤلف موسوم بـ" مقدمة في علم الإستغراب " عام 1991، حيث نجده يقول في هذا الصدد: " من واجبنا إنشاء علم جديد في مقابل الاستشراق. باعتبار أنّ الإستشراق هو دراسة للحضارة الإسلامية من باحثين ينتمون إلى حضارة أخرى، ولهم بناء شعوري مخالف لبناء الحضارة التي يدرسونها، ويكون موقفنا من التراث الغربي هو تعبير عن وعينا بهذا العلم ومادته الأساسية." (حنفي، حسن، 1990، ص 12)

في ما يتعلّق بهذا العلم كمصطلح يذهب الكثير من المشتغلين في هذا الحقل العلمي إلى أنّه " لم ينل العناية التي ويستحقها، وظلّ جانب من معرفة الأمم الأخرى قاصرا على جمع من المثقفين، الذين يرغبون في توسيع آفاقهم، وفتح مجالات للحوار بين الثقافات، ممّا أدّى عند بعضهم إلى أن ينقلب السحر عندهم على الساحر، فيسمّون سفراء للثقافة الغربية. ممتنين للتسويق لها في المحافل الفكرية، بدلا من أن يكونوا خبراء فيها يبيّنون ما فيها من حق وما فيها من خلاف ذلك، فأطلق على هذه الفئة مصطلح التغريبين (Westernizers)، والمفهوم الذي تتولّاه هذه الفئة يدعى التغريب (Westernization) " (النملة، علي إبراهيم، 2015، ص 17)، ولهذا فمفهوم الإستغراب مفهوم فضفاض وغير محدّد ويرجع ذلك لإختلاف الآخذين به وؤيتهم النظرية والعملية له إذ " من نعت الإستغراب والمستغرب بأنّهما مصطلحان يدلّان على الميل نحو الغرب، إعجابا أو تقليدا أو دراسة" (النملة، علي إبراهيم، 2015، ص 41)، إلّا أنّ الإستغراب كعلم أريد له التأسيس وبلوغ الغايات على شاكلة علم الإستشراق تم غالبا سحبه وربط بدراسة الغرب والبعد قد المستطاع عن الإعجاب والتقليد، ولهذا فحسن حنفي سطر الغاية من

تأسيسه في قوله: " مهمة هذا العلم الجديد هي إعادة الشعور غير الأوروبي إلى وضعه الطبيعي، والقضاء على إغترابه، وإعادة ربطه بجذوره القديمة. وإعادة توجيهه إلى واقعه الخاص من أجل التحليل المباشر له، وأخذ موقف بالنسبة لهذه الحضارة التي يظهرها الجميع مصدر كل علم، وهي في الحقيقة حضارة غازية لحضارة أخرى ناشئة نشأة ثانية أو تعيش عصر إحيائها ونهضتها" (حنفي، حسن، 1990، ص 13) ، ويمكن تحديد أهداف الإستغراب وغاياته على النحو الآتي:

- فك الشيفرة التاريخية المزدوجة بين الأنا والآخر، والجدل القائم بين مركّب النقص عند الأنا ومركّب العظمة عند الآخر.
- القضاء على المركزية الغربية.
- رد ثقافة الغرب إلى حدوده الطبيعية، بعد أن إنتشر خارج حدوده في عصور الإستعمار.
- القضاء على أسطورة الثقافة العالمية التي يتوحد بها الغرب ويجعلها مرادفة لثقافته.
- القضاء على ثنائية المركز والأطراف على مستوى الثقافة والحضارة.
- إعادة التوازن للثقافة الإنسانية، بدلا عن الكفة الراجحة للوعي الأوروبي، في مقابل الكفة المرجوحة للوعي غير الأوروبي.
- تصحيح مفاهيم المركزية الأوروبية المتعالية من أجل إعادة كتابة العالم من منظور موضوعي وحيادي وعادل بالنسبة للحضارات التي أسهمت في البناء المعرفي للإنسانية.
- إنهاء أسطورة كون الغرب ممثلا للإنسانية جمعاء، وأنّ أوروبا هي مركز الثقل فيه." (سعد الله، محمد سالم، 2015، ص 54)

وبالعودة إلى المصادر التي يمكن الاستعانة بها في دراسة علم الإستغراب والتأسيس له العودة إلى التراث والماضي ومؤلفات المفكرين الذين إعتمدوا بدورهم على " الحروب والسفارات والرحلات والبحث العلمي" (إلهامي، محمد، 2015، ص 105)، هذا بالإضافة إلى الإستفادة من الآخر و مختلف علومه لأنّ " الإبداع هو القدرة على الخروج من التقليد حتى ولو بوسائل المقلّدين، وإلاّ لترتّع على عرش الإبداع فريق أبدي، ولظلت إبداعات الآخرين مجرد هوامش وتنويعات على المبدعين الأوائل" (حنفي، حسن، والجابري، محمد عابد، 1990، ص 78)، إنّ الإستغراب في جدلية الحضور والغياب بعد أن كان

غائبا في حضور الإستشراق وتحولاته وتطوّراته المختلفة لحد العصر الراهن، دخل لحظة الحضور من باب التنظير بمحاولات تأسيسه ووضع غايات له، ولكن هل نسج شرنقته وظهر بمظهر مختلف ودخل حيّز الممارسة والتطبيق على شاكلة الاستشراق أم أنّه لا يزال حبيس النسج والتنظير؟

2.3. دودة الإستغراب ومحاولات نسج الشرنقة:

إنّ الاستشراق لم يكتف بالتنظير بل نزل إلى الواقع من خلال الممارسة محققا كل غاياته، وتميّز في اللعب على جدلية الغياب والحضور، بخلاف علم الإستغراب الذي لا يزال حبيس محاولات التنظير حضورا وغياب الممارسة، وهذا التنظير لا يزال في مرحلة دراسة الآخر والتعرّف على علومه ونظرياته ومناهجه المواكبة للعصر ونقلها، بل والعمل بها من دون إخضاعها للدراسة النقدية إلّا ما ندر منها، وهو ما أشار إليه حسن حنفي قائلا: "ما زال موقفنا حتى الآن موقف الناقل، فعصر الترجمة لدينا لم يتوقف بعد، ما زال موقفنا موقف العارض للنظريات، وكأنّ هناك علما للعلم، أو كأنّ العلم ينقل من بيئة إلى بيئة لها وجود مستقل عن واقعه" (حنفي، حسن، 1990، ص 10)، وهو الموقف ذاته للمفكر محمد عبد الجابري الذي شاركه مؤلف "حوار بين المشرق والمغرب"، أين قائلا معبرا عن الصعوبة الكبيرة التي يواجهها علم الإستغراب في كل لحظة ومن كل جهة، "إنّ القول بأنّ مهما حاول فريق منّا، على إطلاع بالتراث الغربي قدر إطلاعه على التراث الإسلامي، نقد التراث الغربي فإنّه لا محالة يتأثر بما ينقده، وبالتالي يظل جهده وإجتهاده محدودين، ويظل نقده مردودا إليه، لأنّه ينقد الغرب بآليات الغرب ومناهجه، ولولا الغرب لما أمكن نقد الغرب طبقا لقول الشاعر "وداوني بالتي هي الداء"، ينقد الغرب بما تعلّمه من الغرب، ويظلّ الناقد غربيا وهو يظن أنّه يتخلص منه، ويثبت غربيته وهو يظن أنّه يتحرر منه" (حنفي، حسن، والجابري، محمد عابد، 1990، ص 78)

من أبرز المفكرين الذي قدّموا لعلم الإستغراب على غرار حسن حنفي بل وإنتهجوا الممارسة النقدية للفكر الغربي وإنّ إعتدوا في كثير من الأحيان على آلياته ومناهجه، نذكر عبد الوهاب المسيري، فرانز فانون، هومي بابا، ادوارد سعيد في كتابه "الاستشراق" ونقده له، فإذا "كان المفكرون الغربيون يتعاملون مع الشرق في ضوء علم الاستشراق باعتباره خطابا استعماريًا وكولونياليًا من أجل إخضاعه حضاريا، والهيمنة

عليه سياسيا واقتصاديا وثقافيا واجتماعيا، فإنّ المثقفين الذين ينتمون إلى نظرية ما بعد الاستعمار كحسن حنفي مثلا يدعون إلى استشراق مضاد، أو ما يسمى أيضا بعلم الاستغراب بغية تفكيك الثقافة الغربية تشريحا وتركيبا، وتقويض خطاب التمرکز تشيتا وتأجيلا، وفضح مقصدية الهيمنة على أسس علمية موضوعية" (حمداوي، جميل، 2018، ص 62)، لأنّ مهمة هؤلاء المفكرين والباحثين حسب رؤية حسن حنفي هي "إعادة وصياغة فلسفات التاريخ الأوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر التي صاغت التاريخ كله بحيث يصب في النهاية في الحضارة الغربية، ووضع الحضارة الغربية في مكانها الطبيعي كمرحلة من مراحل تطوّر الإنسانية، قد تكون مرحلة واحدة" (حنفي، حسن، 1990، ص 32)، وإذا كان تاريخ العلوم يبيّن الطابع التراكي للعلم والمعرفة فإنّ كل معرفة تعدّ مشتركا إنسانيا ساهم كل واحد فيها بما يراه يخدم الصالح الإنساني، وعليه فإنّ "دراسة التراث الغربي كجزء من دراسة تراثنا القديم لأنّ فكرنا المعاصر اليوم ومنذ أكثر من مائة عام نقطة إلتقاء بين حضارتي، تراثنا القديم الناشئ من جديد، والتراث الغربي الذي هو إمتداد للتراث اليوناني القديم، كما كانت الفلسفة اليونانية القديمة جزءا من دراسة الفكر الإسلامي القديم ... دراسة التراث الغربي كجزء من المساهمة في الدراسات الإنسانية العامة لإفادة الغربيين أنفسهم والمساهمة معهم في فهم تراثهم كما حاولوا هم في الاستشراق دراسة تراثنا وتعريفنا به" (حنفي، حسن، 1990، ص 33)، وبالرغم من كل المحاولات النظرية لعلم الإستغراب وتقديم قراءات ودراسات نقدية للعلوم والنظريات الغربية لم يصل الإستغراب للمكانة التي وصلها علم الاستشراق، ولا إلى تحقيق الغايات التي بلغها هذا الأخير ولا يزال يحققها، هذا يعني "لم ينضج الإستغراب في بلادنا، رغم هذا الغرب الحاضر دائما، أو قل: بسبب هذا الغرب الحاضر لم يكن ممكنا." (إلهامي، محمد، 2015، ص 224).

4. خاتمة:

في ختام ورقتنا البحثية يمكن القول بأنّ الغرب عرف جيّدا كيف يلعب على حبل الحضور والغياب، وذلك من خلال التلوّن بتلوّن الفترة التاريخية والظروف الحضارية، فالحضور كان حضورا شكليا ومختلفا من الاستشراق إلى علم الأنثروبولوجيا إلى الدراسات



ما بعد الكولونيالية، وإن كان هناك إختلاف ظاهري ، فإنّ الإتقان كان في لعبة الغياب والتحقّي للغاية الأساسية والمتمثلة في تجذير وتطوير الهيمنة الاستعمارية الإمبريالية والعمل على تصاعدها واستمراريتها، وهذه الأخيرة تمثّل الخيط الرفيع والمتين الرابط بين الاستشراق ببداياته الأولى، مروراً بعلم الأنثربولوجيا، وصولاً إلى الدراسات ما بعد الكولونيالية، وهو ما وصفناه وصفاً إيكولوجياً قائلين: من دودة الاستشراق الزاحفة، إلى علم الأنثربولوجيا بالشرنقة، إلى فراشة ما بعد الكولونيالية.

في المقابل، نجد بأنّ الشرق وبالتحديد العرب منهم، بالكاد يدركون فكرة الحضور والغياب وتجسيدها، من منطلق كون الإستغراب قد كان غائبا في حضور الإستشراق وتحولاته وتطوّراته المختلفة لحد العصر الراهن، ثم شرع بالحضور بعد الصدمة الحضارية التي بلغت أوجّها إبّان الحملة الفرنسية 1798-1801 كحركة فكرية تحاول دراسة الغرب من جميع النواحي العقديّة، التاريخية، الثقافية والسياسية، ومع هذا فإنّه لا يزال حبيس محاولات التنظير حضورا والغياب الممارسة، وهذا التنظير لا يزال في مرحلة دراسة الآخر والتعرّف على علومه ونظرياته ومناهجه المواكبة للعصر ونقلها، بل والعمل بها من دون إخضاعها للدراسة النقدية إلّا ما ندر منه، ما يجعل علم الإستغراب واقعا في إشكالية البراكسيس، وإن لم يتم العمل على خروجه منها وتطوير آلياته ومناهجه وتحديد غاياته بدقة، فإنّه لا يمكن الأخذ به كعلم مساو لعلم الاستشراق وإحداث مقارنة بينهما.

5. قائمة المراجع:

الكتب:

أشكروفت، بيل، وآخرون (2010)، دراسات ما بعد الكولونيالية (المفاهيم الرئيسية)، ط1، مصر، المركز القومي للترجمة.



الدهان، محمد، (1988)، قوى الشر المتحالفة: الاستشراق. التبشير. الإستعمار وموقفها من الإسلام والمسلمين، ط2، القاهرة، دار الوفاء للطباعة والنشر.

السباعي، مصطفى، (د.س)، الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، د.ط، الأردن، دار الوراق للنشر والتوزيع.

الفيومي، محمد إبراهيم، (1993)، الاستشراق رسالة استعمار - تطوّر الصراع الغربي مع الإسلام -، ط1، القاهرة، دار الفكر العربي.

العثمان، وسام، (2002)، المدخل إلى الانثربولوجيا، ط1، دمشق، الأهالي للطباعة والنشر.

إلهامي، محمد، (2015)، نحو تأصيل إسلامي لعلم الإستغراب، د.ط، مصر، دار التقوى.

المسيري، عبد الوهاب، (2000)، رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر (سيرة غير ذاتية غير موضوعية)، ط1، القاهرة، مطبوعات الهيئة العامة لقصور الثقافة.

النملة، علي إبراهيم، (2015)، الإستغراب المنهج في فهمنا الغرب، د.س، الرياض، كتاب المجلة العربية.

بغورة، الزواوي، (2001)، المنهج البنيوي بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات، د.س، الجزائر، دار الهدى.

بينيت، طوني، وآخرون، (2010)، مفاتيح إصطلاحية جديدة - معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع -، ترجمة: سعيد الغاني، ط1، بيروت، المنظمة العربية للترجمة.

جدعان، فهمي، (2007)، حصاد القرن (المنجزات العلمية والإنسانية في القرن العشرين) العلوم الإنسانية والإجتماعية، ط1، الأردن ولبنان، مؤسسة عبد الحميد شومان و المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

حموشان، حمزة و بالويللو ميكا مينيو، (2015)، الثورة القادمة فب شمال إفريقيا: الكفاح من أجل العدالة المناخية، ط1، ترجمة: عباب مراد ومنيرة العلافي، مؤسسة روزا لوكسمبورغ ومؤسسة بلاطفورم لندن وعدالة بيئية شمال إفريقيا.

حنفي، حسن، (1990)، في الفكر الغربي المعاصر، ط4، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.

حنفي، حسن والجابري، محمد عابد، (1990)، حوار المشرق والمغرب- نحو إعادة بناء الفكر القومي العربي-، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

حيدر، محمود، (2018)، نحن وأزمة الاستعمار (نقد المباني المعرفية للكلونيالية وما بعد الكلونيالية)، الجزء الأول، ط1، لبنان، العتبة العباسية المقدسة والمركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية.

حيدر، محمود، (2018)، نحن وأزمة الاستعمار (نقد المباني المعرفية للكلونيالية وما بعد الكلونيالية)، الجزء الثالث، ط1، لبنان، العتبة العباسية المقدسة والمركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية.

حيدر، محمود، (2018)، نحن وأزمة الاستعمار (نقد المباني المعرفية للكلونيالية وما بعد الكلونيالية)، الجزء الرابع، ط1، لبنان، العتبة العباسية المقدسة والمركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية.

سعيد، إدوارد، (1996)، تعقيبات على الاستشراق، ترجمة: صبيح حديدي، ط1، عمان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

سعيد، إدوارد، (2011)، خيانة المثقفين النصوص الأخيرة، ترجمة: أسعد الحسين، د.ط، سوريا، دار نينوى.

شريط، عبد الله، (1981)، معركة المفاهيم، ط2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

صليبا، جميل، (1982)، المعجم الفلسفي، ج1، د.ط، لبنان، دار الكتاب اللبناني.

عميراوي، أحيدة وآخرون، (2007)، أثار السياسة الاستعمارية والإستيطانية في المجتمع الجزائري، د.ط، الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954.

لالاند، أندري، (2001)، موسوعة لالاند الفلسفية، ط2، لبنان، منشورات عويدات.

لكرك، جيرار، (1990)، الأنثروبولوجيا والاستعمار، ترجمة: جورج كتورة، ط2، لبنان، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع.

لومبا، أنيا، (2007)، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ترجمة: محمد عبد الغني غنوم، ط1، سوريا، دار الحوار للنشر والتوزيع.

واليا، شيلي، (2007)، إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، ترجمة: أحمد خريس وناصر أبو الهيجاء، ط1، الأردن، أزمنة للنشر والتوزيع.

المجلات والدوريات:



بالتناين، توني، (2016)، المعرفة الاستعمارية، ترجمة: نادر ديب، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، المجلد 5، العدد 17، ص - ص 13 - 46.

بوحسون، العربي، (د.س)، بين التاريخ والأنثروبولوجيا: دراسة في الأنثروبولوجيا الاستعمارية، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، العدد 2، ص - ص 163 - 173.

توميّات، عبد الرزاق، (2022)، بين الأنثروبولوجيا والتاريخ - مقارنة في العلاقة بين علم الإنسان والفكر الاستعماري الحديث -، الجزائر، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، العدد 1، ص - ص 268 - 282.

سعد الله، محمد سالم، (2015)، نظرية الإستغراب في الفكر العربي المعاصر، مجلة فتوحات، العدد الأول، ص - ص 50 - 66.

المواقع الإلكترونية:

منيولو، والتر د (2016)، العصيان المعرفي، التفكير المستقل والحرية الدي-كولونيالية، ترجمة: فتحي المسكيني، منشورات مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، إسترجعت بتاريخ: 2023/12/23 <http://www.mominoun.com>

